شهرة الخيام

بين العلم والأدب

الخيام شهرته مزدوجة ذات شقين ، فقد ذاع صيته في حياته ذيوعاً جارفاً بعلمه الغزير ، وذاع صيته بعد مماته ذيوعاً جارفاً برباعياته الباهرة ، وكان في كليهما فذاً منقطع النظير . ولكنه ما تمتع قط بشهرته كاملة في حياة ولا مات . وقد آن له اليوم أن يستوفي حقه ، أو آن لنا على الأصح أن نفيه حقه ، عالماً وشاعراً .

كان شيخنا عمر الخيام عالماً بكل ما في كلمة العالم من معنى عصري ، بل أكثر مما يحتمله أي معنى عصري . فقصارى العالم اليوم أن يتخصص في علم من العلوم أو فصيلة من العلوم ، ثم لا ثريب عليه بعد ذلك أن يلمَّ إلماماً يسيراً بما يدخل في باب الثقافة العامة من سائر أبواب المعرفة . أما الخيام فقد تخصص تخصصاً في كل واحد من علوم عصره ، فكان في كل فرع من فروع المعرفة في الطبقة الأولى من أهلها . وان المرء لتأخذه الدهشة حين يسائل نفسه كيف اتسع وقت الخيام ، وكيف تيسرت له الأداة لكل ذلك .

أما في الرياضيات والفلك فقد جاوز حد الاحاطة بما وصل اليه العلماء من قبله الى درجة الارتياد والاكتشاف . فهو أول من حلَّ المعادلة التكعيبية في كتابه المشهور « الجبر والمقابلة » ، وهو الذي عهد اليه السلطان ملكشاه السلجوقي بإنشاء الرصد لاستطلاع حركات أجرام السماء . ولا ندري ما الذي كشفه من المجهولات بنفسه في هذا الفن إلا أن معاصريه يقولون انه كان فيه رائد جيله وواحد زمانه . ويقول أبو حسن البيهقي أنه كان تلو أبي علي ـ أي ابن سينا ـ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

في أجزاء علوم الحكمة . وتلك منزلة في العلم لعمري باذخة ، الا انه اذا كان ابن سينا يتفوق عليه في علوم الطبيعة فلا شك أنه يتفوق هو على ابن سينا في الفلك والرياضيات كليهما .

لقد استطاع ذلك العقل العجيب أن يجمع بين خليط متناقض من العلوم والفنون التي تتطلب كل طائفة منها مواهب خاصة وطباعاً خاصة . فلقد تعمق في علوم الدين واللغة من فقه وحديث وكلام ومنطق وقراآت وسيَر ونحو وصرف ، ومحفوظ كثير من منظوم ومنثور . وتضلع من علوم الطبيعة ، على اختلاف فروعها المعروفة يومئذ ، تضلعاً عجز عن بلوغ شأوه الكثيرون ممن انقطعوا لها وتوفروا على درسها . ولم يفلت من يده هذا العلم الذي نسميه اليوم علم الأنواء الجوية ، فلقد وضع فيه رسالة أوضح فيها أسباب اختلاف المناخ في مختلف الأمصار . ولا نعلم ما في هذه الرسالة من مبتكرات لأنها ضاعت ، ولكن مجرد تأليفها يدل على أنه قد جاء فيها بعلم جديد لأنه ما كان يؤلف كتاباً إلا أن يأتي فيه بجديد . وقد روى لنا تلميذه النظامي العروضي السمرقندي أنه استطاع أن يتنبأ للسلطان بصحو الجو خمسة أيام كاملة ، مما يعجز عنه الكثيرون من المتنبئين الجويين الجالسين الآن في المطارات الدولية [1] .

ولم ينج من طموح عقله علم الطب على ما فيه من تعقيد وما يتطلبه من وقت وجهد وممارسة ، فكان بالاضافة الى كل ما تقدم طبيباً نطاسياً بلغ من حذقه وبعد صيته أن دعوه لمعالجة السلطان (سنجر) حين أصيب بالجدري في صباه .

وكان عالماً في الفلسفة ، عارفاً بقديمها وحديثها ، اسلاميها وغير اسلاميها .

وكان عالماً في التاريخ ، وعالماً في الجغرافيا ، وعالماً في الكيمياء ، وعالماً في كل فن كان معروفاً في زمانه .

---

(١) حكاية التنبؤ بصحو الجو وغير ذلك من علوم الخيام فصّلها الكاتب في كتابه : « ثورة الخيام » وقد لخص هنا ما احتاج اليه تمهيداً للمقابلة بين شهرة الخيام في العلم وشهرته في الأدب .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقد بلغ من علمه في قراآت القرآن مثلاً أن سئل مرة عن اختلاف القراء في احدى الآيات ، فجعل يذكر وجوه الخلاف ويعلل كل واحد ، ويذكر الشواذ ويعللها ، ثم فضل وجهاً منها على سائر الوجوه ، فما وسع إمام القراء أبا الحسن الغزال إلا أن قال له من فرط اعجابه : « كثر الله في العلماء مثلك ! اجعلني من أدمة أهلك وارض عني ، فاني ما ظننت أن أحداً من القراء في الدنيا يحفظ ذلك ويعرفه ، فضلاً عن واحد من الحكماء » .

وبلغ من فقاهته في الإلهيات أن بعث اليه أحد رجال الدين والقضاء ، وهو الامام القاضي أبو النصر محمد بن عبد الرحيم النسوي ، يسأله عن أمور من صميم فلسفة الدين ، فأجابه عليها برسالة خاصة عرفت برسالة الكون والتكليف .

على أنه ما كان مجهول القدر بين معاصريه ، فقد كان مشهوراً عندهم بعلو المكانة ، مشهوداً له بالتفوق في أندية العلم وقصور الملوك . كان العلماء من معاصريه يسمونه الإمام ، والدستور الفيلسوف ، وحكيم الدنيا ... وما الى ذلك من ألقاب الاكبار والتوقير .

ومن الطرائف أن نجد حتى الشيخ نجم الدين الرازي الذي اتهم الخيام بالضلال ، وسب الدهريين والطبيعيين الذين عدّ الخيام أحدهم ، لم يتمالك نفسه من إغداق صفات المديح عليه قبل أن ينعته بالضلال ، إذ قال ما ترجمته : « أولئك هم الذين يخرجون من زمرة (أولئك كالأنعام بل هم أضل) فيبلغون مرتبة الانسانية ، ويتخلصون من حجاب غفلة (يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون) فينتهجون بلذة وشوق طريق السلوك . أما أولئك المساكين من الفلاسفة والدهريين والطبيعيين فهم من كلا هذين المقامين محرومون وهم حائرون تائهون ، حتى أن أحد الفضلاء المشهور لديهم بالفضل والحكمة والكياسة والمعرفة ،

وهو عمر الخيام ، قد قال من فرط الحيرة والضلالة هاتين الرباعيتين :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ومدارٍ فيه جئنا وذهبنا نتقلب
خفيَ الأولُ والآخرُ منه وتحجب
أفما من فطنٍ يأتي برأي صائب
منبئاً من أين جئنا والى أين سنذهب ؟

زيَّن الصانعُ تركيبَ طباع البشرِ
فلماذا شانها بالنقص أو بالوضرِ ؟
إن تكن جاءت ملاحا .. فلماذا خَرْبُها ؟
أو تكن جاءت قباحا .. فعلى من عيبها ؟

وبلغ من ذيوع صيته في أقطار المملكة الاسلامية أن كان له أتباع في أصقاعها هنا وهناك ، حتى انه « لما حصل ببغداد » على حد تعبير القفطي « سعى اليه أهل طريقته في العلم القديم » ـ أي الفلسفة اليونانية ـ مع أن الخيام لم يكن زار بغداد قبل ذلك .

وما كان إجلال الخيام وعرفان فضله مقصوراً على العلماء وانما كان ينافسهم في ذلك الملوك والأمراء . وقد كان السلطان ملكشاه ينزله منزلة الندماء ، وكان الخاقان شمس الملوك ببخارى يعظمه كل التعظيم ويجلسه معه على سريره .

ولئن كان بلوغ هذه الذروة الشامخة في العلم جديراً بإكبارنا ، فأجدر بإكبارنا وإعجابنا ما كان يتحلى به الخيام من أخلاق العلماء ، وأخلاق العلماء نادرة لوعورتها في كل زمان .

فمن أخلاقه ، وهو في هذا المحل الأرفع قادر على تسنم ما شاء من المناصب لو شاء المناصب ، وحشد ما اشتهى من المال لو اشتهى المال ـ انه كان مؤثراً للعزلة والدرس ، زاهداً في حطام الدنيا ، مترفعاً عن خدمة الرؤساء والازدلاف اليهم :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

كم تُذِلُّ النفسَ في خدمة أوغاد لئام ؟
تنتحي كل طعام ، كالذباب المترامي ؟
كُلْ رغيفاً كلَّ يومين بلا مَنِّ الانام
فلأن تطويَ خير لك من خبز الكرام !

وحسبنا تفهماً لروحه العلية أن نصغي اليه يقول في مقدمة كتابه «الجبر والمقابلة» ما نصه :

«.. فإنا قد منينا بانقراض أهل العلم إلا عصابة قليلي العدد ، كثيري المحن ، همهم افتراص غفلات الزمان ليتفرغوا في أثنائها الى تحقيق واتقان علم. وأكثر المتشبهين بالعلماء في زماننا هذا يلبسون الحق بالباطل ، ولا يتجاوزون حد التدليس والترائي بالمعرفة ؛ ولا ينفقون القدر الذي يعرفونه من العلوم إلا في أغراض بدنية خسيسة ، وان شهدوا انساناً معنياً بطلب الحق وإيثار الصدق ، مجتهداً في رفض الباطل والزور وترك المراياة والخداع .. استحمقوه وسخروا منه !)» .

وما تزال هذه الكلمة الموجزة المرة تفصح حتى اليوم ، في الشرق خاصة ، عما يكابده العقل الممتاز الذي يطلب العلم لذات العلم ، من محن بين من يتشبهون بالعلماء ، بما ينالون من شهادات دراسية مثلاً ، يدلسون بها على الجمهور ، ويتخذونها ذريعة لجر المغنم ، وتسنم المنصب ، وإشباع الشهوة ، ومكافحة الاصلاح والعلم .

ومن أخلاق العلماء أنه ما كان يؤلف كتاباً إلا اذا أتى بجديد من المعرفة يضيفه الى تراث الثقافة الانسانية كما قلنا آنفاً ، فما كان بالذي يكثر من تأليف الكتب ليحشد فيها من معلومات غيره من الأولين والآخرين ما يزخر به ذهنه الحافل ، ليتخذ من ذلك ذريعة للتكسب أو وسيلة للظهور والمباهاة ، أو زلفى الى الأمراء والكبراء . ذلك بأن العلم لم يكن عند خيامنا الحكيم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

واسطة للأخذ ، بل للعطاء . فاذا ظفر من الحقائق العلمية الجديدة بما يعطيه ، أعطاه . وهو لذلك كان قليل التأليف حتى ظنه بعض قليلي البصر ضنيناً بالتأليف بخيلاً بنشر المعرفة .

ومن أخلاق العلماء أيضاً أنه كان حر الفكر كثير المناقشة لما يعرض له من آراء مسلَّم بها وأحكام متواضَع عليها . ومثله يكون أبداً عرضة للاتهامات والمزعجات ، ولهذا كان كالمعري يشكو معاصريه ويندد منهم بالجهلاء الذين لا يفقهون له قولاً ولا يستطيع معهم صبراً .

فصّلت أسرار دنياكم لدينا في الدفاتر
قد طويناها ، ففي النشر وبال ومخاطر
لم نجد في الناس من يعقل من أهل البصائر
فغدا يعجزنا اظهار ما تخفي الضمائر ؟

وامتد سخطه الى هذا الفلك الدائر الجائر الذي لا مكان فيه للأحرار ، فقال :

آه لو كنت على الأفلاك ربّاً في سمائي
لمحوت الآن هذا الفلكَ الضخم البناء
ولأنشأت بنفسي من جديد فلكاً
يدرك الأحرار فيه ما اشتهوا ، دون عناء !

هذا العلامة الفذ هو شيخنا عمر الخيام ، صاحب الرباعيات . أفليس عجيباً ألاّ نعرفه إلا برباعياته ، ولا نتوهمه إلا عابثاً خليعاً ؟

بلى ، وانه لعجيب أيضاً أن كان أبناء جيله يجهلون من أمر رباعياته الممتعة ما يجهله أبناء جيلنا من أمر علمه الفياض .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أما معاصروه فلم يصلنا منهم عنه إلا روايات مقتضبات ناقصات للسمرقندي والزمخشري والبيهقي . وكلهم أشاد بعلمه ، وكلهم لم يشر بكلمة واحدة الى رباعياته ، كأن القوم لم يسمعوا بها . أما السمرقندي والزمخشري فمعذوران لأنهما في الواقع تعمدا النقص ، أعني أنهما لم يقصدا الى الاحاطة في بيان حال الشاعر الحكيم ، وانما قصد كل منهما أن يروي خبراً بعينه لا يتعداه الى سواه . وأما البيهقي فقد ذكر من سيرته أموراً مهما تكن مقتضبة فهي متنوعة متباينة تدل على أن جامعها أراد التقصي والاستيفاء . وقد كتب البيهقي ما كتب بعد وفاة الخيام بنصف قرن ، فلا عجب أن يتقصى أخباره لينبئ بها من لم يدركه من أبناء الجيل اللاحق ، ولكن الغريب ألا يذكر شيئاً عن رباعيات الخيام بالرغم من تعداد علومه ومؤلفاته . ولولا نواقص خطيرة أخرى في روايته لكان لنا أن نتخذ من إغفاله ذكر الرباعيات دليلاً طيباً على أن الخيام لم يكن مشهوراً بها في حياته . وقد يتخذ المتنطعون المولعون بالإنكار حجةً من ذلك على أنه لم يكن للخيام رباعيات أصلاً . ولكن البيهقي أخفق في التقصي وتوخى الاحاطة والحمد لله ، فكانت هذه النقيصة حسنة غير مقصودة تقطع على المماحكين سبيل إنكار الرباعيات بجملتها على الخيام . ذلك بأن في هذه الرواية ، بالإضافة الى ما فيها مما يبعث الريب أو يستحق التفنيد ، إغفالاً لذكر أمور لا تقل خطراً عن الرباعيات ، ولا سبيل الى الشك في صحة نسبتها الى الخيام . من ذلك أن البيهقي ذكر مؤلفاته ثم فاته أكبرها خطراً وأعظمها قيمة علمية وهو « الجبر والمقابلة » . لهذا كان إغفاله ذكر الرباعيات لا يدل إلا على لا شيء . ولعله لم يسمع بها كما لم يسمع بالجبر والمقابلة . ولكن الأمر الذي يعنينا هنا هو أن الخيام لم يكن مشتهراً بالرباعيات بين أبناء جيله . ولو افترضنا ان الباحثين سيقعون ذات يوم على رواية أخرى لبعض معاصري الخيام فيها ذكر للرباعيات

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فاني أميل الى الظن أنها لن تدل بوجه من الوجوه على أن الخيام كان مشهوراً بها شهرته بعلمه . وإنما كان يتلو رباعياته في أغلب الظن على خاصة أصحابه الذين كانوا هم المعجبين بها ، وهم الذين شهروها ونشروها بين الناس بعد وفاته فيما يبدو .

والظاهر أن خمول ذكر الرباعيات في حياته يرجع الى أنه لم يكن بالشاعر المتوفر على القريض توفره على فنه الخاص في الرياضة والفلك ، وانما كان القريض واحداً من هذه الفنون الكثيرة التي ضرب في كل منها بسهم . ويبدو لي أنه كان ينظم هذه الرباعيات في كثير من الأحيان فرادى في المجالس والمناسبات ، يكتبها على هامش كتاب أو غلاف دفتر ، ويتلوها على من حضر . وقد لا يحتفظ بها ولا يحفظها ، بل يحتفظ بها أو يحفظها بعض السامعين . فاذا هو دُعي مثلاً لمعالجة فتاة مريضة فوجدها تذوي وتذوي ، حتى تقضي نحبها بين يديه ، في أيام غضارة الزهر من عمرها ، جاشت نفسه لهذه الفاجعة الكونية الكبرى ـ فاجعة الموت الذي كان أبداً يشغل بال الخيام ويقض مضجعه ـ واذا به يقول لأصحابه يروي لهم المأساة :

كنت أسعى أمس في إثر الحمى والحبيب
فبدت لي وردة ذابلة قرب لهيب
قلت : ما أجرمتِ كي يصلوك ناراً ، يا جميلة ؟ .
فأجابتني : تبسمت قليلاً في الخميلة !

وإذا رأى ، أو سمع ، أن الأمير أو الوزير أو قائد الجند أو قاضي القضاة فلاناً قد أهان العالم أو الشاعر او البقال أو الشحاذ علاناً ـ جعل يوازن في عقله بين المعتلي والمبتلى من هؤلاء وهو عائد الى داره مثلاً ، فلا يستطيع أن يضع رأسه على الوسادة لينام قبل أن يسطر على هامش احدى صفحات الجبر والمقابلة :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ان من صاروا عظام الناس من أهل المناصب
سئموا أنفسهم من فرط حرص ومتاعب
واذا هم أبصروا غير حريص مثلهم
لم يروه آدميا مثلهم . . يا للعجائب !

وهكذا ....

ولا بد لنا من ذكر سبب آخر لخمول ذكر الرباعيات في حياة صاحبها هو تكتمه في أمرها وإخفاؤها الا عن صحابته الأدنين خوفاً على نفسه من تبعة ما فيها من تمرد ، وكفران بالدين والمجتمع ، وبكل ما فرضا على الناس من قيم وتقاليد .

على أن الرباعيات لم تكن مما يتباهى به مثل الخيام حتى ما لم يكن منها ماسًّا بالدين أو المجتمع ، لأن الشعر لم يكن مشرفاً للعلماء في ذلك العهد . فلعله كان يكتم أمر الرباعيات كلها أحياناً صوناً لمقامه من الابتذال لدى المتزمتين ، وغير المتزمتين .

ولعل من آيات هوان الرباعيات على صاحبها نفسه أنه نظمها بالفارسية وهي يومئذ لغة التخاطب والتفكه ، كالعامية عندنا اليوم ينظم بها بعض الأزجال ، على حين انه كتب كل مؤلفاته ونظم بعض أشعاره ، بالعربية التي كانت عنده لغة العلم والجد . فلو انه ظن برباعياته خيراً أو أراد لها انتشاراً لكان نظمها بالعربية .

* * *

ومات ذكر الخيام في عصورنا المظلمة كما مات ذكر سواه من أعلام الثقافة في الشرق . حتى اكتشفه الغربيون أخيراً فبعثوه كما بعثوا سواه ، فاذا باسمه يدوي في أوربا فتتجاوب أصداؤه في أنحاء العالم ، واذا بالخبر يصل الى أقطار الشرق ومنها بلده ايران ، فجعل مواطنوه أيضاً يهتمون به أسوة بسواهم من الأغراب .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولكنه لم يشتهر بعلمه هذه المرة بل اشتهر برباعياته التي تجاهلها معاصروه واستهانوا بأمرها كما تجاهلها هو في أكبر الظن واستهان بأمرها . على أن ناس اليوم لم يعرفوا هذه الرباعيات على حقيقتها ، لأن أغلب الذين ترجموها في الغرب والشرق لم يفطنوا ، أو لم يريدوا أن يفطنوا ، الى أن الخيام بريء من أكثر هذه الرباعيات السادرة الخليعة التي تعزى اليه ، ولهذا لم يكترثوا من شعره ومما نسب اليه من شعر سواه ، الا لما كان أقرب الى المجون والتسيُّب ، ولم يأخذوا من شؤون فكره إلا ما كان فيه حبيب أو مدام . فتابعهم سواد القراء على ذلك ، وهو أحب اليهم طبعاً ، حتى أصبح اسم الخيام عند الكثرة الغالبة منهم علماً على اللهو والتهتك . وإذا بناشئة اليوم يكادون يسلكونه في زمرة الوجوديين والوجوديات ممن يقضون أمسياتهم المجنونة في أقبية باريس .

ولا يخافن قرائي الكرام أن أنكد عليهم بأن أزعم لهم أن صديقهم الخيام لم يكن له مجون أو عبث ، فيخيب ظنهم فيَّ ، وفيه . فان الأمر يشهد الله غير ذلك ، لحسن الحظ ، ولكن الزعم الذي لا أجد مفراً من إقحامه هنا هو ان للخيام رباعيات فيها تفكير وجد أيضاً ، وانه كثيراً ما اتخذ ابنة العنقود وسيلة للإعراب عن فكرة فلسفية أو تجديفة دينية ، أو إفصاح عن مشاعر قد يكون ملؤها الأسى والتشاؤم . فهو أقرب الى أن يكون فيلسوفاً حزيناً خفيف الروح من أن يكون ماجناً يتكلف الفلسفة والوعظ ، كما كان يتكلفها أحياناً أبو نواس . ومن الحق أن نعرفه على هذا الوجه فنظهر منه على جانب الجد الصارم والتفكير الثاقب أيضاً .

وهل بي الآن من حاجة الى التحدث عن مدى ذيوع صيت الخيام في عالم اليوم ؟ حسبي أن أقول أنه ما من لغة حية الا قد ترجمت اليها رباعيات الخيام عدة مرات وطبعت عدة مرات ، حتى لقد أعيد طبعها بالانكليزية أكثر مما أعيد بها طبع أي كتاب آخر . وحتى لقد بلغ من اشتهاره في أمريكا مثلاً

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أنه قلما امتلك أحدهم هنالك بضعة كتب إلا كان أحدها رباعيات الخيام ..
وحتى لقد ترجمها الى العربية أكثر من عشرة من شعراء العراق وحدهم ـ كاتب هذه السطور أحدهم .

وهكذا يفشو ذكر الخيام في أقطار الأرض فيغلب أهلَ كل مصر على شعرائهم في عقر دارهم ، حتى زحم شيكسبير عند الانكليز ، وگوتيه عند الألمان ، وپوشكين عند الروس ، ودانتي عند الطليان ، والمتنبي عند العرب .

واذا بالمحدثين يكبرون اليوم من شأن هذا الخيام الشاعر ما كان الأقدمون يكبرونه من شأن ذلك الخيام العالم . واذا بالمحدثين يتجاهلون اليوم من قدر علمه ذلك الجم ما تجاهل الأقدمون من قدر رباعياته هذه الرائعة .. كأنهم ينتقمون لها منهم ، ومن الخيام .

ولكن ما بالنا لا نسأل الخيام نفسه ما رأيه هو يا ترى في علمه ، ثم ما رأيه هو يا ترى في شهرته ؟

أما في شأن علمه فيقول :

إن قلبي أبداً لم يُحرَم العلم لعمري
وقليل ما اختفى عنيَ من مكنون سر
بيد أني اليوم في السبعين إذ راجعت فكري
صرت أدري كيف أني .. أبداً ما كنت أدري!

وأما في شأن شهرته فيقول :

ألسعيد الحق من لم يك معروف المكانِ
لم يصر في فوطة ، أو جبةٍ ، أو طيلسانِ
فهو كالعنقاء ، قد طار عن الدارين طرا
لم يكن مثلي يوماً بين أطلال الزمانِ !

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولنسائل الآن أنفسنا . ما هو سبب هذه الشهرة المستفيضة التي أصابها الخيام برباعياته اليوم فتهافت الشعراء على ترجمته وترامى القراء على قراءته ، وأنشئت النوادي باسمه ، وقرعت الأقداح على ذكره .. في أرجاء الدنيا العريضة كلها ؟ أتراه أشعر شعراء الأرض ، أو أشعر شعراء ايران على الأقل ؟

ان سبب شهرته هذه يرجع الى جملة خصال لا أستطيع أن أعد تفوقه في الشعر واحداً منها ، وان في شعراء الفرس وحدهم لثلاثة أعلام كل منهم بعد عند الفرس وغيرهم أشعر من الخيام ، وهم حافظ الشيرازي المتفرد بغزله ، وجلال الدين الرومي المتفوق بتصوفه ، وأبو القاسم الفردوسي المشهور بأساطير أمته . ولكن الخيام بذّ هؤلاء الفحول ، كما بذّ غيرهم من شعراء الأمم .. لا بدرجة شعره ، ولكن بنوع شعره .

وأول هذه الأسباب التي رفعته الى القمة بين شعراء الدنيا ، وأجدرها بالذكر فيما أرى ، هو ان الخيام لم يتخصص في الغزل كحافظ ليفتتن به عشاق الغزل وحدهم ، ولا في التصوف كجلال الدين ليعجب به قراء التصوف خلا سواهم ، ولا في أساطير الأولين كأبي القاسم ليقبل عليه هواة الأساطير دون سائر القراء . وإنما عالج الخيام في رباعياته من الموضوعات ما يهم كل انسان ، وما لا بد أن يكون قد فكر فيه كل إنسان ، فلذلك يقرؤه كل إنسان .

ما من أحد لم يفكر في اللذات أينغمس فيها أم يتجنبها ، أيغتنمها اليوم أم يرجئها الى غد ، أيستنفدها في هذه الحياة الدنيا أم يدخرها الى تلك الحياة الأخرى . ما من أحد لم يفكر في هذه الحياة الباطلة ، وفي الحياة الأخرى أحق هي أم باطل هراء . ما من أحد لم يفكر في هذا العمر القصير ما أسرع ما ينقضي ، وفي هذا الشباب الرائق ما أسرع ما يذبل ويزول ، وفي هذه الحياة كلها كيف تمضي عبثاً كما تمضي ليلة السكران . ما من أحد لم يتلمس وسيلة من وسائل اللهو والترفيه يستعين بها على احتمال أثقال الحياة وتناسي هموم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الدنيا ـ من خمرة أو سواها من الملهيات . ما من أحد لم يفكر في هذه الدنيا أيزهد فيها ويعتزل أبناءها أم يقبل عليها ويتكالب على المال والجاه والسلطان بين أهليهـا .

ما من أحد لم يفكر في هذه الشؤون وأمثالها مما تتناوله رباعيات الخيام ، سواء أكان عالمًا أم جاهلاً ، متفائلاً أم متشائمًا ، شرقيًا أم غربيًا ، من أبناء العصر الحاضر أم من أبناء العصور الغابرة . وأنت بعد ـ أيها القارئ ـ قد توافق الخيام في رأيه الذي يراه وقد تخالفه . فليس ذلك المهم ، ولكن المهم أن هذا الأمر الذي يعرضه لك الخيام ، قد فكرت فيه وكونت لنفسك رأيًا بشأنه ، في يوم من الأيام ، ولعلك ما زلت تفكر فيـه حتى اليوم .. فهو يعنيك في كلتا الحالتين .

وثاني هذه الأسباب ان للخيام في التعبير عن أفكاره طريقة فيها من البراعة والسخرية أحيانًا ، وخفة الروح غالبًا ، ما يجعل حتى الفكرة الكئيبـة أشبه بالنكتة الشائقة ، فضلاً عما في رباعياته من كثرة ذكر للحسناء والصهباء حتى في معرض التفكير والتشاؤم . فكأن أسلوب الخيام غشاء من السكر يكسو الدواء ويطيب طعمه فيستسيغه من لا يستسيغ ما تحته ، واذا بالعابث اللاهي يقرأ الفلسفة ، أو بتفجع على الدنيا ، وهو يظن أنه انما يعاقر الراح أو يشبب بالملاح :

ما لنا بالله أمرى بيـد العقل العقام ؟
ما حياة المرء يومًا واحدًا أو ألف عام ؟
إفتح الراقود واملأ من رحيق الراح جامي
قبل أن نصبح في السوق جرارًا للأنام !

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

احملي الدن مع الأقداح يا سمر حياتي
واخطري بين الأزاهير على شط الأضاة
فلكم أحدث هذا الدهر أقداحاً ودناً
للحميا .. من قدود الغانيات الفاتنات !

وثالث الأسباب أن شعر الخيام ، كما لحظ النقاد ، رباعيات كل واحدة منها قائمة برأسها ، تعالج موضوعاً قائماً برأسه ، ببيان يمتاز بالإيجاز والتركيز ، فهي من أجل ذلك مؤثرة الوقع في النفس ، سهلة الحفظ والرواية .

ورابعها تماجن للخيام يدعو الى اللهو للخلاص من أشجان الحياة ، مع تمرد في طبعه أصيل، يدعو الى التحلل من القيود والأباطيل .

فاذا أضفنا الى كل هذا سبباً خامساً يرجع الفضل فيه الى جمهرة المترجمين الذين يميلون على الأغلب الى الاكثار من ترجمة كل ما فيه تمرد وتماجن ، سواء من رباعيات الخيام أو مما نسب اليه من رباعيات سواه ، ويؤثرون الإعراض من رباعياته عن كل ما كان تفكيراً خالصاً خلواً من دعابة أو تحرش — سهل علينا أن ندرك لماذا أحبه القراء في هذا الجيل القلق المشدوه ، واستفاضت شهرته عندهم في كل مشرق ومغرب .

أما لماذا انطفأت شهرته العلمية اليوم فالجواب يسير : أولاً بسبب هذه الشهرة الجائحة التي جنتها عليه الرباعيات ، وثانياً لأن العلم قد تقدم اليوم تقدماً هائلاً عما كان عليه في عهده ، فلم يعد في كتبه ما يستهوي طلاب المعرفة الجديدة من الباحثين . بل ان ما كان الخيام متفرداً في معرفته أو اكتشافه من قوانين الرياضة والطبيعة أصبح اليوم معرفة مشاعة بين طلاب المدارس . وما أكثر ما يعرفه اليوم تلاميذ المتوسطات والابتدائيات من أسرار الكون مما كان يجهله الخيام ، وأفلاطون .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والآن أجدني أسائل نفسي : ترى لو عاد صديقنا الشيخ الحكيم الى الحياة فوجد أبناء هذا الجيل يعجبون به كل هذا الاعجاب ، ويحتفون برباعياته كل هذه الحفاوة ، ورأى بنان الفضول يشير اليه حيثما سار ، ووجد رسائل الإعجاب تنهمر عليه من أمريكا والصين والسويد والارجنتين .. من طلاب مال وطالبات زواج ، ووجد الناشرين يلاحقونه لإعادة طبع رباعياته والرسامين يطاردونه لإعادة تزيين صفحاتها ، وحفلات التكريم تقام له هنا وهناك ، وهذه الأضواء الفظيعة تنفجر من آلات التصوير في وجهه بين كل دقيقة وثانية فتؤذي عينيه وتثير أعصابه ، وهذا يطلب توقيعاً في دفتره للذكرى وذلك يلتمس صورة في مجموعته للمباهاة ، وجرس الهاتف يعكر صفوه كلما أوى الى بيته ليرتاح ، والمعجبون يأخذون عليه كل سبيل فلا يدعون له من وقته ما يتطلبه التأمل والدرس . أجل ، لو عاد الى الحياة وقاسى كل هذا ، وهو خليق بأن يقاسي أكثر من هذا من عقابيل هذا الإعجاب الأهوج - على طريقة القرن العشرين - إذن لأعاد علينا قوله :

السعيد الحق .. من لم يك معروف المكان ! ..

ولهرب من حياتنا المصرية المحمومة هذه فانزوى في صومعة على رأس جبل ينشد فيها الخلاص ، والراحة ، والسلام .

عبد الحق فاضل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net